

منافذ الوعي الإسلامي إلى العفـل لأنكون إلا عن طريق لغة القرآن

بقلم ثلة من أساتذة كلية الشريعة (دمشق)

نشرت مجلة «حضارة الاسلام» الفراء التي تصدر في دمشق خلاصة آراء بعض رجال الفكر حول استفتائنا ننشرها شاكرين .

وقد فرغ الفقهاء من بيان انه يجب على المسلم ان يتعلم من اللغة العربية ما يصره بحكم الله عز وجل في كتابه وسنة رسوله مالا غنى له عنه، وفي ذلك يقول الامام الشافعي رحمه الله في كتابه « الرسالة » :

(فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسميع والتشهد وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جملة الله لسان نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيرا له) .

غير انه لا ينبغي ان يكون خافيا في هذا الصدد ، ان مرد هذا التلازم انما هو نزول القرآن بلغة العرب، فلولا ان الله عز وجل اقتضت حكمته اختيار هذه اللغة ترجمانا لكلامه وتعبيرا عن خطابه لكان شأنها كشان اي لغة اخرى بل ولنشأ التلازم الذي ذكرنا بين الاسلام واللغة الاخرى التي كانت الحكمة الالهية تختارها .

كان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي في نطاق جهوده المشكورة - قد بعث برسالة الى المؤسسات العلمية في العالم العربي .. يطلب فيها الاجابة عن نقاط معينة تعالج علاقة الاسلام باللغة العربية في القديم والحديث في كل قطر من اقطار وطننا الكبير . وثبت فيما يلي الجواب الموجز الذي اجاب به اساتذة كلية الشريعة في جامعة دمشق .

1 - لا ريب ان هناك قدرا من التلازم بين الاسلام واللغة العربية ، بمعنى ان الاسلام كلما ارتفع شأنه وشاعت احكامه ازداد معه شأن اللغة العربية قوة ورفعة وانتشارا ، وان اللغة العربية كلما ارتفع شأنها وتوسع انتشارها وازدادت دوحة التعمق فيها والدراسة لعلومها ، ازداد بذلك امر الاسلام ظهورا واصبح العمل الفكري اليه اشد جلاء واستقامة ووضوحا .

وكيف لا يكون اشتداد الوازع الاسلامي اعظم سبيل الى قوة اللغة العربية والمزيد من انتشارها ، وان الاقبال على تعلمها انما يكتسب اذ ذاك معنى التعبد لله عز وجل والمكوف على فهم دينه واحكامه .

ومن هنا نعلم انه لا يمكننا ان نقول بحال : انه لولا ان اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

2 - والواقع التاريخي الذي يبدأ من عصر البعثة النبوية الى يومنا هذا ، اعظم دليل وبرهان على واقع هذا التلازم الذي ذكرناه ، وفيما يتعلق بواقع بيئتنا السورية خاصة ، فان مما هو مشاهد ومعروف عندنا لكل احد انه عندما كانت البرامج التعليمية عندنا في المدارس الابتدائية والثانوية تعنى كثيرا بتدريس القرآن والعلوم الدينية ، كانت الملكة العربية لدى الطلاب في غاية القوة والاشراق وكانوا من اجل ذلك يهضمون في دراستهم العربية منهاجا زائرا بالعمق والقوة ، فلما قلت العناية اخيرا بالقرآن ودراسة ما يحف به من العلوم الدينية التي تبث الوازع الديني في النفوس وتشد من ازره ضعفت الملكة العربية لدى الطلاب ضعفا بينا وخطيرا ، واصبح منهاج الدراسة العربية ، رغم ضآلته الشديدة بالنسبة للمنهاج القديم عتبة كاداء في طريق الطالب لا يكاد يجتازها الا زحفا وجرا . . هذا بالرغم من حشد كل ما قد يظن انه ضمان لتقوية الطلاب في هذه المادة ، في النظام الدراسي العام ، من مثل الاكثار من الساعات الدراسية واشتراط المزيد من الدرجات للنجاح فيها وما الى ذلك .

3 - ولا ريب ان من نتيجة التلازم الذي ذكرناه ، ما هو واضح لكل متأمل من تأثر الوازع الديني والوعي الاسلامي بما يعترى اللغة العربية من قوة او ضعف ، ونحن هنا لا بد ان نفرق بين العاطفة الاسلامية والوعي الاسلامي ، فاما العاطفة ، فلعل التلازم بينها وبين اللغة ضئيل ، ومرد ذلك الى ان للاسلام في مجموعه سلطانا على الفطرة الانسانية اذا خلى وشانها ، فالفطرة تنقاد وتتأثر بالاسلام كمقيدة وايمان دون اي حاجة الى وساطة لغة ، اما الوعي الاسلامي وما يتبعه من الوازع الديني الصحيح ، فان منافذه الى الفكر والعقل لا يكون الا عن طريق اللغة العربية .

ان بلدة اسلامية كتركيا مثلا ، لا يعدم معظم اهلها عاطفة دينية متأججة رغم جهل عامتهم باللغة العربية ولكنهم لا يركنون اطلاقا الى اي ركن شديد من الوعي الاسلامي الذي هو وحده الذي يقدر ان يحمي افكارهم الدينية من اي تلبس او خداع ديني قد يتسلل اليهم .

ومن اجل ذلك يلاحظ ان الكيد التبشيري ضد الاسلام انما يستهدف تلك المناطق الاسلامية التي

توجد فيها حرارة عاطفية نحو الدين ، ولكنها تعيش قاصبة عن الوعي الاسلامي بسبب انجاسها في سجن المعجمة وانسداد المنافذ التي توصل افكار اهلها بحقيقة الاحكام الاسلامية وما تنطوي عليه من منهج وتنظيم .

4 - اما فيما يتعلق بمدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات او اللغات الاقليمية في الانظار الاسلامية ، فان الامر يختلف بالنظر الى اختلاف التاريخ .

فيما مضى ، وحينما كان سلطان الاسلام منبسطا على نفوس الشعوب الاسلامية وسلطانها الحاكمة معا ، فقد كان تأثير الاسلام على اللهجات واللغات الاقليمية تأثيرا عظيما وكليا ، ولا يجهل احد ان معظم البلاد العربية اليوم انما كان اهلها اخلاطا من الاعاجم المختلفين ، ولا يجهل احد ان التاريخ القديم والقريب يملا اذهاننا بامم من الاكراد والأتراك والفرس والشركس والهنود تجردوا عن خصائصهم اللغوية ، وصقلت السننهم اللغة العربية بتأثير من الفكر الاسلامي الذي سيطر على نفوسهم .

اما اليوم فمن المؤسف ان نقول : ان التأثير الاسلامي في اللغات الاقليمية او اللهجات المحلية لم يعد قويا كما كان ، ذلك لان سلطان الاسلام قد انحسر مده ولم يعد يتجلى الا في نفوس الشعوب الاسلامية كشعوب ، وهذا القدر لا يكفي لظهور اثر الاسلام ولغة قرآنه على اللغات الاقليمية او اللهجات العربية المختلفة .

5 - ان اللهجة الاقليمية التي تشيع في تعابير اقليمنا السوري ، ليست من اللهجات البعيدة عن اللغة العربية الاصلية ، ومن ثم فان تأثيرها على اللغة العربية تأثير جزئي ولا ريب ان يضعف ويقوى حسب اختلاف التأثير الديني قوة وضعفا .

6 - ومع ان هنالك لهجة عربية اقليمية لدينا ، فان اللغة العربية الاصلية هي وحدها اللغة العلمية واللغة الدراسية في شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي ، ومهما كانت العلوم التي تدرس فان الاداة التعبيرية عنها هي اللغة العربية وحدها .

اما اللغات الاجنبية ، فشانها كشان المسواد الدراسية التي يتلقاها الطالب في المدرسة قصدا الى تميم مقوماته الثقافية وتسهلا لوسائل الترجمة والتعريب .